الباب الثامن

المرابطون والموحدون بالاندلس وانهيار حكم المسلمين بها

الفصل الأول

دولة المرابطين أو الملثمين

هنالك فى الصحراء الكبرى ما بين حدود هضبة الاطلس والسودان الغربى كانت تضرب خيامها قبائل من البربر أشداء البنية ذوى جلد وفروسية يتلثمون كفرسان الطوارق الحاليين ،وظلوا على وثنيتهم حتى وصل إلى ديارهم مبشرون من قبيلة صنهاجة البربرية ، واخترقوا بلادهم من أقصاها إلى أقصاها من حدود بلاد الجزائر الحاليه حتى السنغال ، فنشروا بينهم الاسلام وعلموهم أحكامه وفرائضه وقد ظلوا مستقلين لم تطأ أرض بلادهم قدم فاتح متحصنين فى صحرائهم المنيعة فاسسوا دولا متعاقبة إلى أن تولى الملك فيهم يحيى بن عمر المتوفى عام ٤٤٧ هـ ، وفى أيامه فتح الملثمون درعه وسجلماسة . وتولى بعده أخوه أبو بكر فافتتح بلاد السوس ٤٤٨ هـ ، ومدينة اغمات ٤٤٩ هـ ، و بلاد المصامدة ٤٥٠ هـ ، ومدينة لواته ٤٥٢ هـ ثم شبت فى عهده ثورة فى أقاصى السودان فناب عنه فى حكم بلاد المغرب عمه يوسف بن ناشفين وارتحل هو إلى داخل السودان ولقب يوسف بأمير المسلمين ، وانتزع يوسف بقية بلاد المغرب من حكامها البربر وأخضعها لحكم المرابطين وأسس

مدينة مراكش عام ٤٥٤هـ ثم دوخ جبال تلمسان وزناته وضم المغرب الأوسط والمغرب الأقصى الى دولة المرابطين . ثم وفد عليه قضاة أكبر مدن الاندلس يستصرخونه لنجدة المسلمين الذين كانوا قد استذلوا واستهين بهم

قدوم أمير المسلمين إلى الأندلس :

أسرع أمير المسلمين إلى تلبية نداء أهل الأندلس ، وقال أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى ، ثم عبر البحر فى معسكر ضخم فى مائة سفينة من مدينة سبته إلى الجزيرة الخضراء ، وسلم الراضى ابن المعتمد ليوسف الجزيرة الخضراء ، كما استقبله المعتمد فى أشبيلية ومعه وجوه أهل دولته ، وقدم اليه من الهدايا والتحف والذخائر ما أدهش أمير المسلمين و بهره ، ووفد عليه عبد الله ملك غرناطة ، وتميم أمير مالقه حفيد باديس وأرسل المعتصم امير المريه جيشا كما أمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح وعتاد ، وسار الجميع إلى بطليوس حيث انضم اليهم المتوكل أميرها مع جيشه ومنها الى طليطله بعد تكامل عدد المسلمين ، وكان الفونس السادس اذ ذاك يحاصر سرقسطة ، فرفع الحصار عنها ، وعاد مسرعا الى طليطلة ، فلقيه المرابطون وحلفاؤهم المسلمون عند الزلاقة على مقربة من بطليوس وتبادل العاهلان المكاتبات ، وكان رد يوسف الأخير الجواب ما ستراه وكان عدد المسلمين ٢٠ الفا والمسيحيين ٥٠ الفا ، وهاجم المسيحيون المسلمين على حين غرة فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦م ، ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ ففر الأندلسيون وكانوا فى مقدمة الجيش عدا جند أشبيلية وعلى رأسهم المعتمد ولحقهم المرابطون فتعادلت الكفتان ، ودار المرابطون فالتفوا حول جيش الفونس وقتلوا منه مقتلة عظيمة ،

وأشعلوا النار فى معسكره ، فهرب المسيحيون وظل يوسف ينتقل بين عسكره حاثا لهم على الثبات والمصابرة وحسن البلاء ، ثم قذف يوسف بحرسه الأسود نحو الملك الفونس فهجم عليه عبد منهم وجرحه فى فخذه بخنجر وفى المساء تم النصر للمسلمين وتمزق جيش المسيحيين كل ممزق ، فلم يبق منه الا القتيل أو الجريح ، وفر كثير من المسيحيين ومن بينهم الملك الفونس نفسه وكان فى نية أمير المسلمين أن يخترق بلاد المسيحيين ويغزوهم فى عقر دارهم ولكن موت ابنه الذى كان قد تركه نائبا عنه فى سبته اضطره الى الاسراع فى العودة فترك أربعة آلاف من جنوده تحت أمرة المعتمد

نتائج معركة الزلاقة :

١) أخلى المسيحيون بلنسيه ، واضطروا الى رفع الحصار عن سرقسطة وفقد الفونس خمسة وعشرين الفا من خيرة جنوده

٢) تخلص أمراء الاندلس من مذلة دفع الاتاوة للفونس

٣) تنفس عرب الأندلس الصعداء ، وأصبحوا آمنين من غارات المسيحيين بفضل ماتركه يوسف من الجنود المرابطين وظل الجزء الشرقى من الاندلس حيث بلنسيه ومرسيه ولورقة والمريه مكشوفا للاعداء

٤) سر أهل الأندلس بنجاتهم من عدوهم وأظهروا التيمن بأمير المسلمين وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر ، وانتشر الثناء عليه بالاندلس ، وأظهر الناس اعظامه مما أطمعه فى بلادهم . ومع هذا فقد ظل ملوك الأندلس ضعافا لا حيلة لهم فى دفع الخطر عن انفسهم ولا طاقة لهم بحرب عدوهم

عودة يوسف الى الأندلس :

أظهر امراء الاندلس ضعفا امام المسحيين ، وظهر فى اثناء غزوات المسيحيين لشرق الاندلس تفوق جند قشتاله على جند المسلمين ، اذ هزموا جيش المعتمد عند لورقة مع انه كان عشرة اضعافهم ، وارهق اهل بلنسيه زعيم مسيحى من شذاذ الآفاق اسمه رودريجو الكمبيا دور المعروف فى التاريخ بالسيد فالبسهم لباس الخوف والفزع ، واجبرهم على دفع جزية شهرية قدرها اثنى عشر الف دينارا وبنى المسيحيون لانفسهم حصنا منيعا فى قرية اليدو تسلطوا منه على الامارات الاسلامية ، وحاول المعتمد حصرهم عند لورقة وصمم على استدعاء يوسف ثانية فحاصر قصر يوسف بن تاشفين بمدينة مراكش جمع من فقهاء الاندلس وكبرائة من بلنسيه ومرسيه ولورقة وأشبيلية يناشدونه أن ينجد المسلمين مرة أخرى حتى لا يكتسح المسيحيون أسبانيا ، وفى هذه المرة زار المعتمد بنفسه يوسفا ورجاه أن ينقذ المسلمين من عدوهم ، ومع أن المعتمد لم يكن غافلا عما قد يترتب على عمله هذا من طمع يوسف فى ملك الاندلس الا أنه فضل أن يرعى الابل فى صحراء مراكش على رعى الخنازير فى قشتالة وقبل يوسف رجاء زعماء الأندلس وأمرائها فنزل بعسكره فى الجزيرة الخضراء للمرة الثانية عام ١٠٩٠م

انضم المعتمد الى يوسف كما انضم اليها بقية أمراء الاندلس تميم ملك مالقة وعبد الله ملك غرناطة والمعتصم ملك المرية وابن رشيق أمير مرسيه ، وحاصر الجميع حصن اليدو ، وأعد صناع مرسية عدد الحصار ، وأخذ كل أمير يهاجم الحصن يوما بطوله ، ولكنهم عجزوا عن فتحه لاستماتة حاميته فى القتال ، وكان عددها ١٣ الفا

وأخيرا عزم المسلمون على اجبارهم على التسليم جوعا ، وفى أثناء ذلك داخل المحاصرين الهواجس مما ترامى اليهم من اتجاه نية يوسف إلى اخضاع الأندلس وانتزاعها من أيدى أمرائها وضمها إلى ملكه ، وشجعه على ذلك كثير من الفقهاء والزعماء الذين رأوا أن انضمام الاندلس إلى عاهلية المرابطين يخلصهم من الكوارث والنكبات المنصبة عليهم من المسيحيين، بسبب انقسام البلاد إلى إمارات متباغضة وطمع كل أمير فى ملك جيرانه ، واستعانتهم جميعا بالمسيحيين على بعضهم البعض ، على أن الأمراء والشعراء والفلاسفة وكبار ذوى المناصب لم يكن يروقهم أن يستولى المرابطون على البلاد

أما الشعب فكان فى صف الفقهاء يريد أن يضم المرابطون بلاد الاندلس إلى ملكهم حتى يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأهليهم من كل اعتداء ، ويتخلصوا مما يفرضه الأمراء عليهم من باهظ الضرائب ، ويخلصوا بلادهم من مذلة دفع الجزية للمسيحيين ، وأخيرا تحرك القاضى أبو جعفر القليعى قاضى غرناطة فافتى بحق يوسف الشرعى فى امتلاك الأندلس دفاعا عن بيضة الاسلام ، وبدأ يوسف ينظر جديا فى تحقيق غرضه ، وشجعه على الاسترسال فى مشروعه ماشهده من انقسام الأمراء على أنفسهم وتحاسدهم ووشاياتهم ودسائسهم حتى وقت ان كانوا فى معمعمة النزال محاصرين لحصن اليدو . إذ طلب المعتمد القبض على ابن رشيق أمير مرسية لأنه سبق أن كان حليف الفونس السادس ، ولاشىء يمنعه من أن يكون متصلا به كما أنه كان حاكما على مرسية من قبل المعتمد فاستقبل بها . وأحال يوسف المشكلة على الفقهاء فافتوا بتسليم ابن رشيق الى المعتمد ، وإذ ذاك استاء جند مرسية وأضربوا عن الاشتراك فى القتال ، وعن تقديم الأطعمة والذخيرة . فتحرج موقف المسلمين وقد أقبل الشتاء يهصرهم قره ، وزحف عليهم

الفونس بجيش عدده ١٨ ألفا لفك الحصار عن حصن اليدو

صمم يوسف على الانسحاب إلى لورقة لأنه خشى فرار الاندلسيين كما حدث فى موقعة الزلاقة ، ولأنه رأى أن اليدو لم تعد تصلح أن تكون حصنا وحققت الحوادث صدق نظره إذ لم يكد يشهد الفونس ما أصاب أسوار الحصن من تلف لا يمكن ترميمه وما فقدته الحامية من خسارة فى أثناء الحصار (لم يبق منها إلا ١٠٠ جندى) حتى أحرق الحصن ، وعاد إلى قشتالة

والقى الفقهاء اللوم كله فيما حدث على الأمراء ودسائسهم واحقادهم ، واتجه يوسف فى مسيره إلى غرناطة بجزء من جيشه ، وأمر بقية الجيش أن تلحق به ولما رأى عبدالله ملك غرناطة نوايا يوسف العدائية استنجد بالفونس فلم يجده ذلك نفعا ، وأخيرا سلح صناع غرناطة ونساجها ، وأنفق فى ذلك كل ماليديه من مال فلم يغن ذلك عنه شيئا ، إذ تسلل أنصاره منفضين من حوله ، ونصحه مستشاره كما نصحته أمه بالتسليم ، وكانت أمه تطمع فى أن يتزوجها أمير المسلمين ، فخرج لاستقباله فى ركب فخم ، ولكن يوسف امر بالقبض عليه وان يوثق بالاغلال ، ثم رحب باعيان غرناطة ودخل المدينة فى صحبتهم وسط حماس لا يوصف حيث بايعه الناس

واستولى يوسف على كنوز غرناطة ، وما فى قصورها من تحف واموال وعتاد واحجار كريمة من زمرد و ياقوت وماس ولآلىء وآنية من فضة واكواب من ذهب ، وفى غرناطة قدم عليه المعتمد والمتوكل مهنئين بالفتح والظفر ، وارسل المعتصم ابنه عبيد الله للتهنئة ايضا فقوبلوا مقابلة فاترة ، وقبض يوسف على ابن المعتصم وسجنه فتفتحت اعين الأمراء إلى الخطر الذى جروه على انفسهم وعزموا على

تكوين حلف ضد المرابطين والاستعانة بالفونس السادس على طردهم من الأندلس

واستدعت الحوادث عودة يوسف إلى أفريقية ، فسافر إلى الجزيرة الخضراء ومنها عاد إلى بلاده . وفى طريقه انتزع امارة مالقة من تميم أخى عبدالله أمير غرناطة وترك لقواده مهمة اخضاع أمراء الاندلس بفتوى الفقهاء، الذين أفتوا بان الأمراء فسقة مستهترون ، وظلمة مارقون ، وأنهم بتحالفهم مع أعداء الاسلام قد حل خلعهم وأصبح يوسف فى حل مما عاهدهم عليه ، بل صار لزاما عليه أن يقضى عليهم إذ لو تركهم على ماهم فيه لسلموا بلاد المسلمين إلى أعدائهم المسيحيين ، ووافق على هذه الفتوى علماء المغرب ومصر والعراق وعلى رأسهم حجة الاسلام الغزالى

استيلاء المرابطين على البلاد

كانت الحرب بين المرابطين والأمراء حرب حصار لا حرب ميادين، فسارت كتيبة من جند المرابطين لحصار المرية ، وأخرى إلى قرطبة ، ففتحتها بعد أن دافع عنها الأمير فتح بن المعتمد وقتل فى دفاعه عام ١٠٩١م، وسقطت قرمونة فى مايو ١٠٩١ م ثم حوصرت أشبيلية وتحرج مركز المعتمد فلجأ إلى الفونس يستنجده ولكن المرابطين هزموا جيش المسيحيين الذين جاءوا لنجدة المعتمد . فيئس وترك أمر الدفاع عن أشبيلية إلى ابنه الرشيد . ولم تجد المقاومة نفعا فسقطت أشبيلية فى سبتمبر ١٠٩١ م ونهب المرابطون قصر المعتمد وسلمت روندا فغدر المرابطون بقائدها الراضى بن المعتمد . ثم سقطت بطليوس وقتل المتوكل أميرها وولداه الفضل والعباس . وفى عام ١٠٩٤م استولى المرابطون على بطليوس قبل أن يتمكن

الفونس من أنجاد أميرها ، أما فى شرق الاندلس فقد سقطت المريه ومرسيه ثم بلنسيه ١١٠٢ م ومات يوسف سنة ٥٠٠ هـ ١١٠٧ م فتولى الملك من بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين فاستمر فى اخضاع امارات الاندلس واستولى على سرقسطة و بذلك تم الأمر للمرابطين

مأساة المعتمد :

سكب المعتمد أحزانه وهمومه على القرطاس فدون قصة مفجعة حزينة هى مأساة خالدة من أروع المآسى وسالت عيون قصائده رائعة تهز المشاعر هزا وتملأ النفس رثاء واشفاقا ولما قبض عليه وعلى اسرته ونفوا إلى طنجه قال المعتمد عندما وطئت قدمه العدوة

لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ع على فمى السم النقيع
أن تستلب عنى الدنى ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
أجلى أتأخر لم يكن بهواى ذلى والخشوع
ما سرت قط إلى القتا ل وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم والاصل تتبعه الفروع

ومات المعتمد ١٠٩٥ م ودفن بأغمات ورثاه ابو بكر بن اللبان شاعره بهذه الأبيات :

تبكى السماء بدمع رائح غادى ... على البهاليل من أبنـاء عياد
على الجبال الذى هدت قواعدها ... وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
والرابيات عليها اليانعات ذوت ... أنوارها فغدت فى خفض أوهاد
باضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... فى ضم رحلك وأجمع فضلة الزاد
و يا مؤمل واديهم ليسكنه ... خف القطين وجف الزرع بالوادى

حكم المرابطين بالأندلس

تحققت رغبة الفقهاء والشعب بتوحيد ملك الاسلام فى الاندلس تحت حكم المرابطين ، فأصبح لرجال الدين القول الفصل ، وكان ملوك المرابطين على أعظم جانب من الصلاح والتقوى ، وخصوصا على (١١٠٦ — ١١٤٣ م) وتاشفين الثانى (١١٤٣ — ١١٤٥ م) وكان على كثير التقوى يصوم النهار ويقوم الليل، وفى عهده علت كلمة ابن حمدين قاضى قرطبة،ولكن الشعراء والفلاسفةوالمشتغلون بالعلوم ضاقت بهم سبل العيش ، واضطهدوا اضطهاداً شديداً ، فأصبحوا يتحسرون على عهد الامراء الذين كانوا ينعمون فى بحر عطاياهم ؛ واضطر كثير منهم أن يهجر الاشتغال بالفلسفة ، ويستبدل بها دراسة الفقه والحديث كما فعل مالك بن وهيب ، وتغيرت معاملة المسيحيين واليهود ؛ فلم يعودوا ينعمون بالتسامح الدينى الاسلامى ، فهدمت الكنائس بأمر الفقهاء مما استفز الفونس إلى العودة إلى قتال المسلمين ، فغزا ديارهم وأعمل فيها النهب والتخريب حتى نواحى قرطبة ، وعند عودته انتقم المسلمون من المسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم ، فاضطر عشرة ألاف منهم إلى الهجرة شمالا والاستيطان فى ديار

المسيحيين ، ومما يدل على تعنت الفقهاء أمر القاضى ابن حمدين باحراق كتاب الاحياء للغزالى حجة الاسلام

على أن المرابطين قد تمكنوا من إعادة الامن إلى نصابه، وضبط الطرقات وارهاب ملك قشتالة حتى لم يعد يجرأ على شن الغارات على المسلمين ، وكانت الضرائب معتدلة ، وكان اليهود يشترون حريتهم الدينية بدفع مال يكفى لسداد العجز فى وارد الخزينة ، فعم الرخاء بلاد الاندلس ، وتحسنت حالتها الاقتصادية ، أما من الوجهة الحربية فان المرابطين لم ينالوا نصراً باهراً على المسيحيين ، فلم يحققوا ما عقده الشعب عليهم من الآمال، ولم تبلغ انتصاراتهم ما بلغته انتصارات عبد الرحمن الثالث أو الحكم الثانى أو المنصور بن أبى عامر ، ولقد فوتوا فرصة لا تعوض: ذلك أن مسيحى الشمال انقسموا على أنفسهم بعد وفاة الفونس السادس عام ١١٠٩م وقامت الحروب الأهلية فى أسبانيا المسيحية فلم يحرك المرابطون ساكناً ومع أنهم استولوا على بضعة مدن صغيرة لا أهمية لها فقد ضاعت سرقسطة من أيديهم إذ استولى عليها المسيحيون عام ١١١٨م كما أنهم عجزوا عن الاستيلاء على طليطله ، وأدرك مسلموا أسبانيا بعد قليل أنهم لم يستفيدوا من ذلك الانقلاب إلا فائدة لا تكاد تذكر ، إذ إنغمس المرابطون بدورهم فى الترف والنعيم ، فتبدلت طباعهم وفقدوا خشونة الجندية وتقشف المجاهدين وتقوى النساك ، وأخذتهم زخارف المدنية التى رأوها ،فبدأوا يقلدون الأمراء الذاهبين الذين خلعوهم ، وفشا العصيان فى الجند ، فأخذوا ينهبون الناس ، وكثر فرارهم من مواطن القتال وقعودهم عن جهاد العدو ، وتدهورت حالة الجيش حتى اضطر على أمير المسلمين مع شدة كراهيته للمسيحيين إلى اتخاذهم له أجناداً ، فاستخدم الجند المرتزقة من جليقية وقطلونيه وإيطاليا والرم،

كما أن النساء أصبحن يتدخلن فى تسيير شؤون الدولة،وتسيطرت قمر زوجة على على بعلها ، كما سيطرت زوجات الأمراء والقواد على أزواجهن ، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب إلى إمرأة عظيم فيجعلها ملجأ له ، وبدا عجز الحكومة وارتباكها فتخبطت فى قراراتها تنقض اليوم ما ابرمته بالامس وتطلع الامراء إلى عرش البلاد كل بتحفز للوثوب عليه

سقوط دولة المرابطين :

فى أثناء ذلك كانت صحارى أفريقية فيما وراء هضبة الاطلس تتمخض عن ثورة جديدة عام ١١٢١م — ٥١٥هـ زعيمها المهدى المصلح محمد بن تومرت . وأخذ المهدي ينشر دعوته بين قبائل البربر والزنوج الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الموحدين وتقلدوا السلاح لحرب المرابطين ، وكان قيام الموحدين الضربة القاضية على دولة المرابطين المتداعية إذ لم يكد الجند يرون الاعداء حتى فروا من القتال فرقاً ورعباً وحبا فى الحياة ، ولم يثبت فى مواطن النزال إلا الجند المسيحيين . واضطرت دولة المرابطين ابقاء على نفسها أن تحشد كل مالديها من جند وتجمع كل ماعندها من الجيوش والحاميات ولم يهمل المسيحيون انتهاز هذه الفرصة فاغار الفونس السابع ملك قشتاله الذى لقب نفسه بلقب امبراطور المسلمين والمسيحيين على الاندلس الاسلامية عام ١١٣٣م ونشر النار ووضع السيف فيها حتى قرطبة وأشبيلية وقرمونه ووصل إلى قادش ثم إلى جبل طارق ، وفى ١١٣٨ م خرب وعبيده أنحاء جيان وفى عام ١١٤٣ م أعادوا الكرة على قرطبة وأشبيلية وقرمونه وفى ١١٤٤م أتم اجتياح جميع بقاع الاندلس

ورأى الشعب الاندلسى ، والاسى يملا قلبه ، أن الانقلاب لم يفده الا بارقة

من الازدهاز كانت برقاً خلباً ثم انقضت وشيكا، وأعقبها عجز الحكومة وتفشى الفساد والظلم فيها وانقلاب الجند وحوشا جبناء يفرون من العدو وينهبون المستضعفين من الناس ؛ وانحلال السلطات الحكومية ، حتى غدت المدن والريف تعج بقطاع الطرق ومناسر اللصوص ، ووقفت حركة التجارة ، وقل القوت وغلت أثمانه ، وعز على الفقير نواله ، ويضاف إلى تلك الكوارث طامة كبرى هى عودة المسيحيين إلى ترويع المسلمين بغزواتهم التى لا تنقطع . فتحطمت تلك الآمال التى وضعها الناس فى المرابطين وانقلب ثناؤهم سخطا وحبهم مقتا ، وفى ١١٢١ م ثار أهل قرطبة على جند المرابطين وانضم الفقهاء إلى جانب الشعب وأفتوا بأن قتال المرابطين مشروع جائز دفاعا عن النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وخضع على للفقهاء فعاد الشعب الى السكون واستمر السخط تغلى مراجله فى المدن الاخرى حتى اشتكى أهل سرقسطه وأشبيلية إلى الفونس السابع ملك المسيحيين ، واستجاروا به أن ينقذهم من المرابطين ، ووعدوه أن يدفعوا له الجزية كما كانوا من قبل ،وصمم الشعب أخيرا على أن يقوم فومة رجل واحد لطرد المرابطين والالتجاء الى محالفة الفونس السابع بعد ماندم على خذل أمرائه والغدر بهم وتسليمهم لأمير المسلمين

الفصل الثانى

الموحدون

فى سنة ٥١٥ هـ ١١٢١ م قام بسوس بين قبائل البربر من مصمودة المهدى محمد بن تومرت فى صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وادعى نسبته إلى الحسن بن على وكان قد رحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ولقى أبا بكر الشاشى فأخذ عنه شيئا من أصول الفقه والدين وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين ، ولقى أبا حامد الغزالى بالشام أيام تزهده وأخذ بمذهب الأشعرية أهل السنة ، ولما عاد إلى المغرب أخذ يعظ الناس ومعظمهم على مذهب أهل الظاهر فى منع التأويل ، فاجتمع عليه الناس ومالت اليه القلوب ، وأخذ يبث آراءه بين البربر وسمى أتباعه بالموحدين استنكارا منه لتكفير القائلين بالتجسيم الذى يؤدى اليه الوقوف على الظاهر . إذ كان هو ينهى عن الجمود على الظاهر . ولما كثر أنصاره ادعى أنه المهدى المنتظر والامام المعصوم . ورفع نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بسط يده فبايعه أنصاره على مابايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ٥١٥ هـ

ولما تمت البيعة أخذ يقاتل المرابطين فى المغرب وأمر على جيوشه عبدالمؤمن أحد كبار المخلصين له من أنصاره ، فاخضع المهدى لمتونه . وقضى على دولة المرابطين فى المغرب الأوسط والمغرب الاقصى من حدود برقة إلى المحيط الاطلسى وتوفى المهدى عام ١١٣٠ م — ٥٢٤ هـ فخلفه عبد المؤمن أكبر أنصاره وأشدهم إخلاصا لدعوته وحكم ٣٠ عاما حكما موفقا

ولما اجتاح الفونس السابع حفيد الفونس السادس بلاد المسلمين مخربا مدنها العامرة واضعا السيف فى الوادعين من أهلها استنجد أهل الأندلس بالموحدين فأرسل عبدالمؤمن أسطولا وجيشا انتزعها من المرابطين وهزم المسيحيين وصدهم عنها عام ٥٤٠هـ ١١٤٦م وفى ٥٤٧ غزا الموحدون تونس وضموها الى ملكهم

فتح الأندلس :

نزلت جيوش عبدالمؤمن بالجزيرة الخضراء ١١٤٥ م فوجدوا مسلمى الاندلس يمزق كيانهم التنافس والشقاق والمسيحيين أشداء عليهم فاخذوا فى فتح البلاد واستخلاصها من أيدى المرابطين الذين كانوا قد استقلوا بها . ومن الجزيرة الخضراء زحف الموحدون على اشبيلية ثم مالقة ١١٤٦ م . ثم استولوا على قرطبه وأخضعوا الجنوب حتى جبل طارق ١١٥٠ م ومات عبد المؤمن ١١٦٣ م بعد ان وسع ملك الموحدين نصف بلاد المسلمين فى العالم القديم تقريبا . وكان أشقر اللون أزرق العينين حاد الذكاء شجاعا حازما متصلبا فى دينه يحب العلماء و يقربهم اليه فازدهرت العلوم والفنون فى عصره و بخاصة فى الاندلس . وشيد عبد المؤمن جامعات العلم فى مراكش وتولى من بعده ابنه محمد ثم ابنه الثانى ابو يعقوب يوسف . وكان كريما رحيما سعد الناس فى عصره ورتعوا فى سعة من العيش ورغد واجاز ابو يعقوب يوسف الى الأندلس مرارا وكان له فيها انتصارات باهرة على المسيحيين وتولى الملك من بعده ابنه يعقوب المنصور عام ١١٨٤ م وفى عهده وصلت دولة الموحدين الى اتمام عظمتها ورقيها وقوتها وكان عالما نافذ البصيرة فأعلن الحرب على الفونس التاسع ملك قشتالة ثم هادنه خمس سنين فى اثنائها تضخم جيش قشتالة بمن انضم اليه بدافع التعصب الدينى من مسيحى ما وراء جبال البرانس

فغزا الاندلس الاسلامية وارتكب من الفظائع ما تقشعر من هوله الابدان وأخذ يسلب ويسفك الدماء، فلما علم يعقوب ذلك اجتاز البحر من مراكش إلى الاندلس وصدم المسيحيين الذين تجمعت جموعهم من اقصى بلاد العالم المسيحى فى موقعة الاراك عام ٥٩١هـ ١١٩٥م بجوار بطليوس وهزمهم هزيمة عظيمة تفوق هزيمة الزلاقة وقتل من جيوشهم ١٤٦ الفا وأسر ٣٠ الفا وغنم يعقوب غنائم لاحصر لها، من خيام وجواهر ومال وبغال وحمير وخيل فقسمها بين المسلمين ، وفر الفونس إلى طليطلة وجمع جيشا آخر لقتال الموحدين . وسقطت مدريد وسلمنقة وحصونا ومدنا كثيرة فى أيدى المسلمين

ثم زحف يعقوب لحصار طليطلة وضيق الخناق على الفونس التاسع فيها فخرجت أمه وزوجاته و بناته باكيات بدموع غزيرة، وتوسلن الى يعقوب أن يكف عن حصار المدينة ، فتأثر يعقوب وعفا مكرمة منه عن الفونس . واستجاب اليهن وردهن مكرمات، ثم عاد إلى أشبيلية حيث وفد عليه رسل الفونس يطلبون الصلح و بعد عقده عاد يعقوب إلى أفريقية عام ١١٩٧م وتوفى هناك ١١٩٩م

وكان يعقوب معاصرا للسلطان صلاح الدين الأيوبى واليه أرسل صلاح الدين بعثة تطلب منه المعونة ضد الصليبيين ، وكان نصيرا للعلوم والفنون متدينا صالحا حكم امبراطوريته حكما عادلا قويا ، وكان جيشه حسن التنظيم مدربا وهو الذى أسس المستشفيات والمستوصفات فى كل مدينة تحت حكمه لمعالجة المرضى والعناية بالضعفاء والمعوزين ، ونبغ فى عصره ابن رشد الفيلسوف الشهير ، وكان قاضيا لقرطبة ، وابن زهر الطبيب الذائع الصيت ، وابن باجة الطبيب . واعتنى بالرى وتشييد المبانى والمدن والقصور والحصون، ومن آثاره مرصد اشبيلية الذى بناه بعد موقعة الاراك

وتولى بعده ابنه محمد الناصر لدين الله فكان على عكس أبيه خامد الهمة عاكفا على اللهو معدوم الكفاية . وعلى يديه كان خراب دولة الموحدين وضياع ملك الاسلام فى الاندلس. ولم يكد يعلم المسيحيون بموت يعقوب حتى جددوا غاراتهم على المسلمين ، وملأ الفوضى الناسع البقاع المحصورة بين أشبيلية وقرطبة بجنوده يعيثون فسادا، فيها اضطر الناصر إلى عبور البحر من سبته بمراكش الى الأندلس ومعه ٦٠٠ ألف مقاتل عام ٦٠٩هـ ١٢١٣م وتخاذل الاندلسيون عن جهاد عدوهم وكان انتصار صلاح الدين فى الشرق قد أعاد الى أوربا جموعا من مغامرى الصليبيين الذين أرادوا أن يثأروا من مسلمى الغرب لما لاقوه من هزيمة على أيدى مسلمى الشرق

واعلن البابا أنوسنت الثالث حربا صليبية على المسلمين وأخذ اسقف طليطلة يحرض المسيحيين على القتال كما كان يفعل بطرس الناسك من قبل . فاجتمع ملوك قشتالة وأرغون والبرتقال وليون وناڤارا وانضم اليهم جموع من فرسان فرنسا وايطاليا وألمانيا الصليبيين، والتقى الجمعان فى موقعة العقاب وفى أول صدمة هرب الاسبانيون . وثبت البربر . ولكن غلبهم جموع المسيحيين وقضوا عليهم ورجع الناصر مهزوما إلى أشبيلية . ومنها أسرع بالعودة إلى مراكش حيث مات حزنا وعارا وبموته قسمت دولته وتمزقت كل ممزق . ووثب كل أمير على ما نحت يده مستقلا به. وأخذ كل يكيد للآخر ويستعين بالمسيحيين، الذين عادوا يتسلمون الحصون والبلاد والجزية نظير معونة يقدمونها لأمير على آخر. وأخيرا اجتمع أبناء الأسر العربية وكبار مسلمى اسبانيا على اخراج الموحدين من بلادهم، وثاروا تحت قيادة ابن هود وابن مردنيش وابن الاحمر. فاستولى ابن هود على شرق الاندلس وابن زياد على بلنسية . ومحمد بن يوسف المعروف بابن الاحمر على غرناطة .

وانقرضت دولة ابن هود سنة ٦٦٨هـ ١٢٤٦م

وكذلك سقطت الدويلات الأخرى الواحدة بعد الأخرى فى أيدى المسيحيين ومازال المسيحيون يهاجمون قرطبة حتى سقطت فى أيديهم عام٦٣٤هـ ١٢٣٦م وفى ١٢٣٨م سقطت بلنسيه وفى ١٢٤٨م سقطت اشبيلية ولم يقو على الوقوف طويلا فى وجه لمسيحيين إلا بنو الأحمر فى غرناطة

هذا ويرجع سقوط الموحدين فى اسبانيا إلى السبب الرئيسى. وهو عدم نقل مقر حكمهم من افريقية إلى الاندلس . وانهم اكتفوا بالبقاء فى أفريقية وبسط نفوذهم على اسبانيا والمجىء اليها من آن لآخر لمحاربة النصارى.

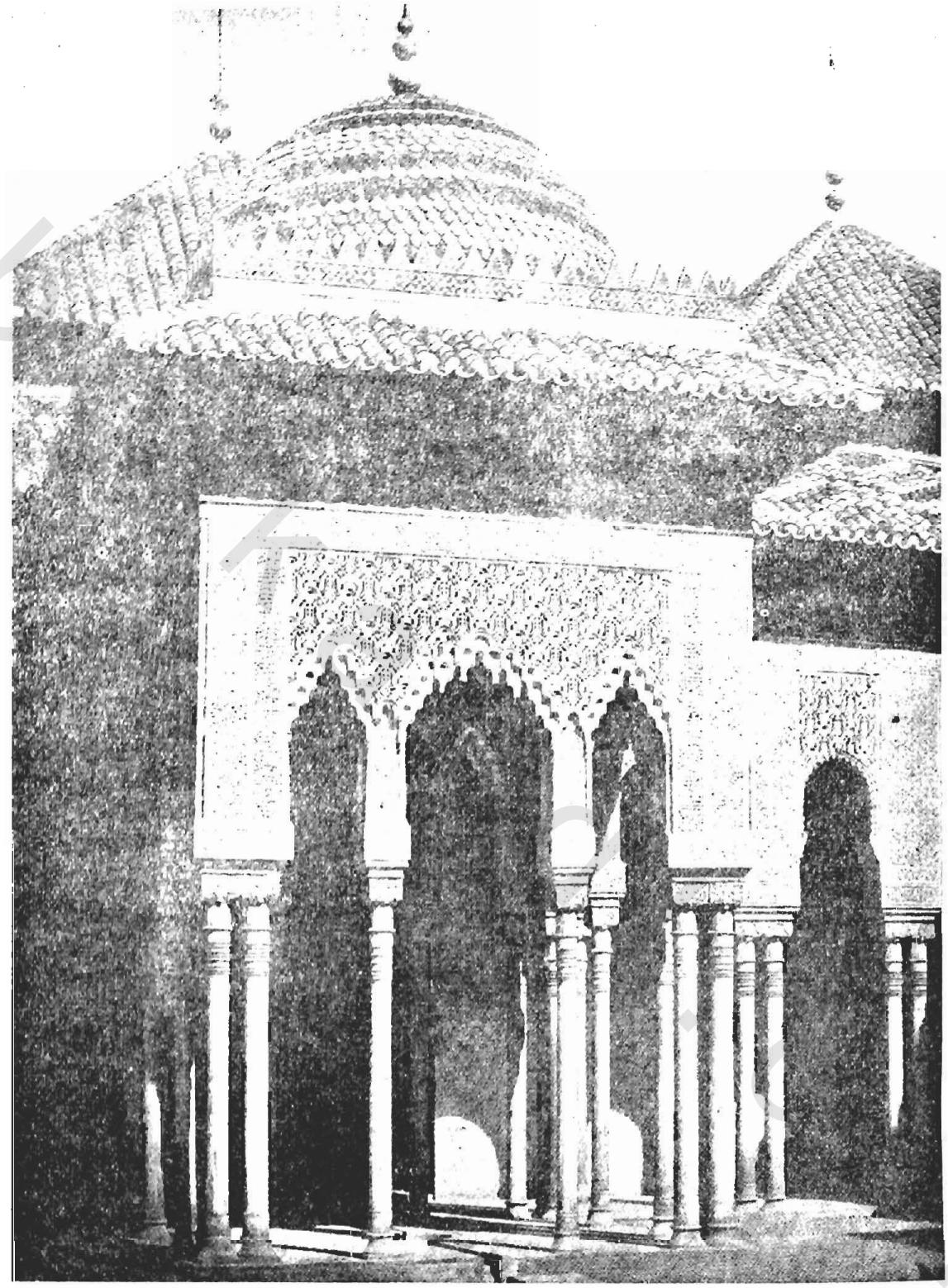

ردهة فى سر السباع بقصر الحمراء

obeikandl.com

الفصل الثالث

دولة بنى الأحمر : ٦٣٠ — ٨٩٨ هـ ١٢٣٢ — ١٤٩٢

انكمشت دولة المسلمين فى امارة غرناطة التى أسسها محمد بن الأحمر فاستطاعت لمناعة موقعها أن تقاوم المسيحيين مدة قرنين ونصف . واصل بنى الأحمر من أرجونه ويعرفون ببنى نصر ويرجع نسبهم إلى سعد بن عباده سيد الخزرج . وقد جاء بنو نصر إلى بلاد الأندلس عقب الفتح الاسلامى ودخلوا فى خدمة الدولة الأموية ، وتقلبوا فى وظائفها وبخاصة قيادة الجند ، وكان محمد هذا يلقب بالشيخ ومعترفا له بزعامة بنى نصر بسبب خلقه القويم وكفايته النادرة ، وعرف بابن الأحمر لأن بشرته ولون وجهه كان يميل إلى الحمرة

وظهر ابن الأحمر فى أرجونه من ضواحى قرطبة وتحصن بها ، ومد فتوحاته منها إلى شواطىء مضيق جبل طارق ونادى بنفسه سلطانا ، ونافس ابن هود فى مطامعه فاضطر إلى الاستعانة بالمسيحيين ، وحالف فرديناند الثالث ملك قشتاله واستعان به على ابن هود ولكن هذا قدم للمسيحيين ثلاثين حصنا ليساعدوه على اسقاط ابن الأحمر . وهكذا عادت الفتن الأندلسية سيرتها الأولى فخسر المسلمون واستفاد المسيحيون ، وقامت حرب داخلية انتهزها المسيحيون فاستولوا على بلاد أولئك المساكين ، ولم تكن معاونة المسيحيين لابن الأحمر ضد بنى هود إلا للتخلص من خصم من خصومهم على يد خصم آخر ثم الانفراد به بعد ذلك

وتمكن ابن الأحمر أثناء انشغال ابن هود بحرب المسيحيين من انتزاع بعض

ممتلكاته مثل الاراك وجيان وغرناطه ومالقه والمريه ، واقامة دولة حصينة قويت على صد أحداث الزمان أمدا طويلا واتخذ غرناطه عاصمة له ، وسمى نفسه الغالب بالله وهو الذي شيد قصر الحمراء والقصبه

ويعتبر قصر الحمراء جوهرة فريدة بين آثار المسلمين ويقع على ربوة عالية تشرف على سفوح سياراً نفاداً ، ويعد معجزة لفن العمارة العربى وآية فى ابداع نقوشه وشموخ أبراجه واتساع باحاته وردهه الأنيقة وقبابه العالية ، التى يتدلى من سقفها الثريات وأهداب الذهب ، كأنها مدلاة من مغارات طبيعية . أرضه مفروش بالرخام وبه قاعة تسمى ردهه القضاء ، كان يجلس فيها الملوك والقضاة لرد المظالم والنظر فى الدعاوى ، منقوشة نقشا رائعا وسقفها مكون من ٣ آلاف قطعة وصل بعضها ببعض بمهارة عجيبة حتى ليخالها الرائى قطعة واحدة . ثم تليها قاعة الأس المدهشة الاخاذة ، ومنها يصل الزائر إلى حجرة تسمى صحن البركة وبها بحيرة جميلة تصب المياه فيها من أفواه سباع وكأن خرير مياهها زئيراً ترسله فى الآفاق . وإلى جانبها قاعة الخلافة مزينة بالقباب مزخرفة بالنقوش المموهة بالذهب ، وعلى مقربة من هذه قاعة الحريم وفيها يتجلى الجلال والجمال ، أرضها من الرخام الأبيض ، وسقفها مموه بالذهب ويشرف على روض زاهر وبساتين نضرة ، ويشتهر قصر الحمراء بمقصوره السباع التى طبقت شهرتها الخافقين ، وهى لاشك أبدع ما فى القصر إذ بها أعمدة مدعمة فوقها عقود وهى لكثرتها يخالها الناظر غابة متجمعة من الرخام ، وتحصر هذه العمد فسقية يتناثر رشاش مياهها من أفواه سباع محكمة الصنع الوضع

كل ما فى الحمراء مدهش معجز ، فالنقوش البارزة والغائرة ، والحواشى المهدبه والتماثيل والزخارف والجص والفسيفساء والهندسة والتنظيم والوضع كله آية يعجز عن محاكاتها البشر ، ويكاد الرائى يحسب القصر كله قطعة واحدة لا عوج فيها

وضراغم سكنت عرين وآسة تركت خرير الماء فيه زئيرا

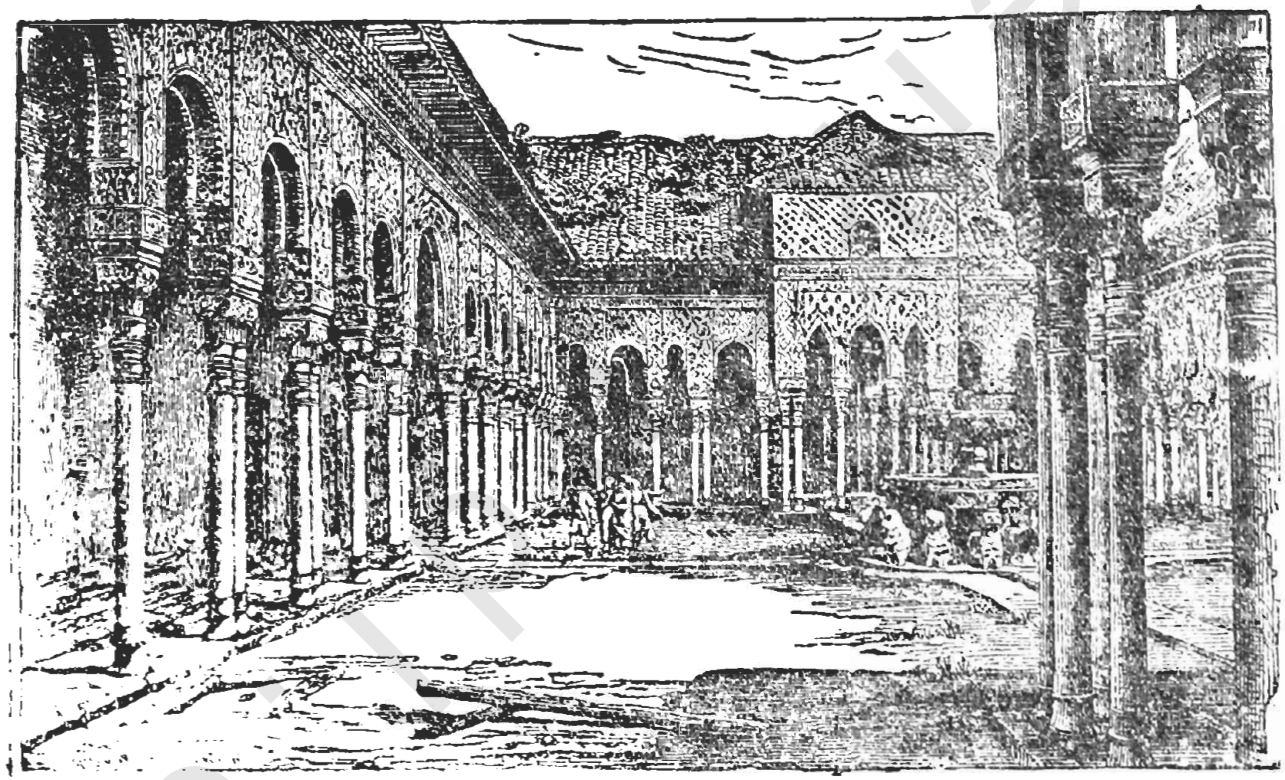

مقصوره السباع بقصر الحمراء

obeikandl.com

ولا امتا ، هذه التحفة الفنية قد أعمل الاسبان الجهلة فيها يد الهدم الوحشية شفاء لاحقادهم ،غافلين عن أن الحظ الأعمى قد القى اليهم بأعجوبة من أعاجيب الزمان. بين مقاصير هذا القصر وفى نضرة هذا النعيم كان تعيش سلاطين بنى الأحمر ينعمون و يلهون كأنما نقلوا فى منامهم إلى أرض خيالية هم عنها راحلون

وقد بلغت مساحة هذا القصر خمسة وثلاثون فداناً ، وكان قصر العظمة والجلال ، ومعجزة الفن ، والمثل الأعلى للصناعة العربيه ، وقصارى ما أبدعته يد الفنان ، ومنتهى ما وصلت اليه صناعة الانسان ، أطلت من الحضارة العربية ، وقد أخذت زخرفها وازينت على أوربا وهى إذ ذاك موحشه مقفره ، فكان ذلك أسطع دليل على أن الحضارة الغربية وليدة الحضارة العربية

وكان جل اعتماد ابن الاحمر فى سياسته على تحالفه مع بنى مرين ملوك أفريقية (المغرب الاقصى) . و بفضل هذا التحالف استطاع ابن الاحمر أن يرد هجمات ملك قشتاله عام ١٢٦١ م ٦٦٠هـ ومات ابن الاحمر ١٢٧٢

وخلفه على العرش ابنه أبو عبد الله محمد الثانى وكان عالما فقيها محبا للعلم، وفى عصره غزا ملك قشتاله غرناطه مرة أخرى عام ١٢٧٤م وكان الجيش المسيحى بقيادة جونز الزدى لارا ،ولكن سلطان غرناطه استنجد بحلفائه بنى مرين ،و بفضل مساعدتهم استطاع أن يهزم المسيحيين وأن يقتل جونز الزدى لارا أثناء الهزيمة ، وتمتعت غرناطه بعد ذلك بسلم دام إحدى عشر عاما ما لبث القتال أن تجدد بعدها مع القشتاليين ، ولكنهم هزموا فيه ومات محمد عام ١٣٠٢م بعد حكم دام ٣٠ عاما وكان يلقب بالفقيه لتفقهه فى أمور الشرع والدين

وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الثالث وكان حكيما قديرا ، على أن أخاه نصرا ثار

عليه واغتصب منه العرش، فانتهز القشتاليون الفرصة وجددوا هجومهم على غرناطه وساعدهم ملك أرغون ، واضطر نصر إلى دفع الجزية ، فاستاء الشعب والفقهاء فى غرناطه وخلعوه عام ١٣١٤م وولوا مكانه الأمير اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن الاحمر وفى مستهل حكمه هاجمه القشتاليون وانتزعوا منه مدنا وحصونا كثيرة ، ولكنه لم يلبث أن انتصر عليهم فى موقعة البيرة ١٣١٩م ٧١٩ه وكان نصره نصرا مبينا إذ قتل فى تلك الموقعة ابن ملك قشتاله و ٢٥ أميرا من بينهم أمير انجليزى كان قد جاء بجيش انجليزى لنصرة المسيحيين، وقتل اسماعيل غيلة بعد حكم دام احدى عشره سنه

وتولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد الرابع فكان سلطانا قويا موفقا، وفى ١٣٣٣م استولى على جبل طارق واسترده من المسيحيين وقتل غيلة كأبيه ، فتولى الملك من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف، وكان أكثر ملوك هذه الاسرة استنارة وذكاء وعدلا، فازدهرت البلاد ونعم الناس بالعيش الرغيد واستمر حكمه ٢١ سنة وقتل غيلة وهو يصلى فى المستجد ١٣٥٤ م ٧٣٣ ه وخلفه ابنه محمد الغنى بالله ، وكان نصيرا للعلوم والفنون واستوزر لسان الدين بن الخطيب مؤلف تاريخ الدوله الناصريه ، وحدث أثناء غيابه عن عاصمة ملكه أن خلعه أخوه اسماعيل واغتصب العرش، فسافر من وقته إلى أفريقية واستقر بمدينة فاس إلى أن علم بقتل اسماعيل أخيه فى ثورة واستدعاه أهل غرناطه فعاد إلى عاصمة ملكه وقضى مدة حكمه الباقية فى هدوء وسلام، تقدمت البلاد فى أثنائها وازدهرت ازدهارا علميا واقتصاديا ومات الغنى بالله ١٣٩١ م وخلفه ابنه يوسف الثانى ثم يوسف الثالث و به يختتم تاريخ مملكة غرناطة وعزتها ١٤٢٣ م

و بدلت الأيام غرناطة بأمتها خوفا ومنعتها خذلانا، إذ أغار عليها المسيحيون

ومع أنهم هزموا شر هزيمة عند أرقدونة إلا أنهم خربوا ماحول غرناطة ، وعاد داء الفتن والانقسام العضال يدب دبيبه فى جسم الدولة الباقية للمسلمين فى الأندلس ومرت خمسه أعوام تقضت كلها فى تطاحن داخلى زاد المسلمين وهنا على وهن ، ثم أغار القشتاليون على غرناطة واستمرت الحرب طويلا فخربت كل عامر فى أرجاء الامارة من قصور وحصون أصبحت ترابا وحقول عادت يبابا وقناطر لم يبق منها حجرا على حجر ، فاستولى القشتاليون على جبل طارق وأرقيدونة ، وأحدقوا بغرناطة فاضطر أميرها ابن اسماعيل أن يعترف بالخضوع لهنرى الرابع و يحكم البلاد باسمه ، و يدفع له جزية سنوية مقدارها ١٢ ألف دينار واستمر هذا العهد قائما حتى وفاة ابن اسماعيل ١٤٦٦ م

انتهاء حكم المسلمين بالأندلس — سقوط غرناطة

خلف ابن اسماعيل أكبر أولاده أبو الحسن على وكان له زوجان أحداهما ابنة عمه عائشة مسلمة شريفة يجرى فى عروقها دم الملوك ، وله منها أبو عبدالله محمد والثانية اسبانية مسيحية اسمها ايزابلا وهى المعروفة بالزهرة ، وكانت موضع حبه ، وذات الحظوة لديه هى وأولادها مما أحقد عليه زوجته عائشة وابنها ، وأدت ثورة الابن على أبيه إلى ضياع البقية الباقية من ملك الاسلام بالأندلس. و بينا زواج منحوس يهدد الدولة الاسلامية بشر مستطير كان هناك زواج سعيد يعقد فى الدولة الاسبانية المسيحية يبشر المسيحيين بسعد طالعهم وقرب ظفرهم وهو زواج فردناند أمير قشتالة من ايزابلا ملكة أرغونة عام ١٤٦٩ م مما ترتب عليه انضمام ملكيهما ، وانضمت اليهما ليون بعد ذلك وكان كل من الزوجين متعصبا يكره المسلمين ، فصمما على طردهم من غرناطة ، وظلا يترقبان سنوح الفرصة حتى هيأها لهما أبو الحسن نفسه

وذلك ان فردناند أرسل رسله إلى غرناطة فى طلب الجزية فردهم أبوالحسن ردا مملوءا صلفا وغرورا ، وقال لهم لقد مات الملوك الذين قبلوا دفع الجزية ، أما أنا فجعلت من دار الضرب مصانع للسيوف وأسنة للرماح ، ثم قاد جنده إلى الزهراء واحتلها بغتة فأثار على نفسه كامن التعصب والبغضاء المسيحية ، وجر على بلاده الويلات والكوارث

وتنبأ العقلاء من أهل غرناطة أن عاقبة الطيش انما هو جر النكبات على رءوسهم ، وان زوال ملك الاسلام قريب وان أيامه معدودة ، وهاجم المسيحيون سريعا الحامه ردا على مهاجمة الزهراء وكانت الحامه مدينة حصينة على بعد ٥٠ ميلا من غرناطة ، وهى مفتاح الطريق اليها

ولما سقطت فى أيديهم أحرقوها بعد أن نهبوا مافيها ، وقتلوا جميع من بها من الرجال والنساء والأطفال رغم التجائهم إلى مسجدها الجامع ، فاوقع سقوطها الرعب والفزع فى قلوب أهل غرناطة ، وارتفع البكاء والعويل واستنزل الناس اللعنات على رأس من كان سببا فى ضياعها ، وحاول أبو الحسن مرتين استردادها فلم يفلح فى المرة الأولى ، وكاد يوفق فى المرة الثانية لولا أن خرج عليه فى غرناطة ابنه أبو عبدالله محمد أثناء اشتغال أبى الحسن بقتال العدو ، فاضطر إلى العودة إلى غرناطة حيث كان ابنه قد احتل الحمراء ، ونادى بنفسه سلطانا على البلاد ورأى أبو الحسن حراجة موقفه فلجأ إلى أخيه محمد المعروف بالزاجل أمير مالقه ، وأرسل فردنياند وايزابلا جيشا إلى إمارة مالقة فاحرق الحرث ، وقطع أشجار الزيتون والكرم ، ودمر القرى ، وذبح الوادعين من سكانها ولكن الزاجل استطاع أن يهزم المسيحيين ، ويقتل منهم مقتلة عظيمة ، ورأى أبو عبد الله أن اسم عمه أصبح على كل لسان فى غرناطة ، فاراد أن ينافسه ويقلده فى مهاجمة المسيحيين

ولـكن هؤلاء هزموه وأسروه و إذ ذاك نزل أبو الحسن لأخيه الزاجل عن مالك غرناطة

ولـكن فرديناند وايزابلا وجدا فى أبى عبدالله أداة طيعة سهله لتحقيق مايرتجيان من نشر التفرقة والانقسام ، و بذر بذور الشقاق بين سكان غرناطة ، ثم القضاء على هذه الامارة المنـكودة بعد ذلك ، فاسرعا باعادته إلى غرناطه ، ومداه بالمال الرجال ليحارب عمه الزاجل حتى إذا بلغ منهما الاعياء انقضا عليهما معاوضرباهما الضربة القاضية . و بمساعدة جيش من مسيحى قشتالة وقسم من أهالى غرناطة الذين أشـترتهم أمة بالمال استطاع أبو عبد الله محمد أن يستولى على البيسان احدى ضواحى غرناطة ، وعادت المدينة المنـكودة تقاسى ويلات الحرب الأهلية وتقدم العم إلى ابن أخيه يناشـده الدين والرحم ، و يقترح أن يحكما معا و يقاتلا العدو معا ولـكن أبو عبد الله أبى واستكبر

وتلك كانت فرصة العد المواتية فلم يتركها تفلت من يده ، بل انتهزها وأسرع بالاستيلاء على رونده وحصونا كثيرة حولها على مقربة من مالقة وهى امارة الزاجل وفى عام ١٤٨٧م استولى الاسبان على مالقة نفسها وحاول الزاجل استردادها فاعترضه أبو عبد الله وسد عليه المسالك اليها ، و بلغ من دناءة هـذا الأمير أن أرسل يهنىء فرديناند وايزابلا بانتصار جيوشهما على عمه الزاجل واستيلائها على مالقه عاصمة امارته ، ومع أن المدن التى سلمت انمـا فعلت ذلك على شرط أن يؤمن أهلها على دينهم وأموالهم وأولادهم إلا أن فرديناند بعد أن تم له الاستيلاء عليها لم يتردد فى نقض العهد والنكث به ، وعرض على الناس العبودية أو الجلاء فاختاروا الجلاء ، وتحالف فرديناند مع أبى عبد الله على اعطائه البلاد التى يفتحها من امارة الزاجل ، واستغاث هذا بملوك المسلمين فى المغرب ، ولـكنهم كانوا عن

استغاثته فى شغل شاغل بحروبهم الداخلية ، ولما لم يلب نداه أحد خرج الزاجل إلى أفريقية وسلمت الحاميات الاسلامية فى البشرات

لم يبق إلا غرناطة و بضعة مدن مجاورة ، وظن أبو عبد الله المسكين أن فرديناند وايزابلا تاركاه ينعم طويلا بحكمها ، ولكنه كان فى ظنه واهما إذ لم يكد يبارح الزاجل الأندلس حتى طلبا منه تسليم غرناطة ، ولما رفض وصمم أهلها على القتال إلى النفس الأخير خرب فرديناند الفيحاء ، ودمر المنازل حولها ، وسبى وقتل كل من لقيه من المسلمين ، ثم عاد فرديناند إلى قرطبة

وكان يقود المسلمين موسى بن أبى الغازات وهو من أشجع فرسانهم فملأ المسلمين ثقة بالنصر ، وقاد جيوشهم ومعه أبو عبد الله إلى ما وراء حدود الامارة واستولى على بعض الحصون ، ولكن فرديناند عاد بجيش عظيم عدده ٥٠ الفا و بدأ يخرب كل عامر من جديد و يذبح السكان الآمنين و يعذبهم بأنواع العذاب و يبيح لجنده هتك الأعراض ، وضيق فرديناند الخناق على غرناطة وشدد فى حصارها عام ١٤٩١م — ٨٩٦هـ فلجأ سكان الغوطة إلى داخل أسوار غرناطة وعم اليأس وعظم الخطب واشتد الحال ، وكان القوت يصل إلى غرناطه من طريق البشرات ولم يكن العدو قد قطعه مما قواها على الثبات على الحصار ، وكان القتال معظمه مبارزة ومناجزة فارس لفارس وفيه كان النصر دواما لفرسان المسلمين لبراعتهم فى الفروسية ، ولما رأى فرديناند أنه خسر خيرة فرسانه عزم على أن يحمل الحملة الأخيرة فقطع طريق البشرات ، وعندها عز القوت وجابه الناس شبح المجاعة

عام ٨٩٧ هـ

الخاتمة :

كانت المدينة غاصة بألوف المهاجرين اليها من المدن الأخرى التى سقطت فى أيدى الأسبان، وكان العدو قد أحرق المزارع حولها وأفسد الأرض وخرب القرى وقرب من المدينة المدافع والالات الحصار ، وأمر فرديناند فشيدت أمام غرناطة بلدة سنتافى ، فهال ذلك المسلمين وأوقع الرعب فى قلوبهم لأنهم رأوا فيه عزم المسيحيين على متابعة الحصار صيفا وشتاء ، وكان من المعتاد أن ينسحبوا إلى بلادهم شتاء فيرتاح المسلمون من الحرب ويصلحوا ما اختل من شأنهم ، فلما تمكن فصل الشتاء وكلب المبرد ونزل الثلج ، وانسد باب المرافق وانقطع الجالبه ، وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرب وضاق الحال وبان الاختلال ، وطمع العدو فى الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، اجتمع ناس ممن يشار اليهم من أهل العلم وقالوا أنظروا فى أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم : فاحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة وكلمهم فى هذا المعنى ، وقال لهم أن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكان ظننا أنه يقلع عنا فى الشتاء فخاب الظن وبنى وأسس وأقام وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم » من نفح الطيب المقرى

ثم شرع ابو عبد الله يفاوض الاسبان على ان يخلى لهم قلعة الحمراء ، وينزل عن غرناطة بما فيها نظير شروط ومطالب ، ولما قبل ذلك فرديناند تليت الشروط على اهل غرناطة ، ونزل السلطان ابو عبد الله من الحمراء شاكيا باكيا وامه تقول له :

ابك مثل النســاء ملـكا مضاعا لم تحافظ عليه مثـل الرجال

وكانت شروط التسليم ٦٧ منها ان ينزل السلطان عن غرناطة و يسلمها فى بحر شهرين إذا لم تصله نجدات من دول اسلامية اخرى ، وللمسلمين فى تلك المدة أن يخلصوا بلدهم بالقوة إذا استطاعوا — يقدم السلطان ووزراءه وقواده وفقهاء غرناطة وأهلها عامة فروض الطاعة لفرديناند

يمنح فرديناند أبا عبد الله جزءا من اقليم غرناطة يحكمه برجاله ، يتعهد المسيحيون بأن لا يتعرضوا للمسلمين ولا يعتدوا على ازواجهم ، وأموالهم ودورهم وعقارهم وسيوفهم وخيلهم ، ولا يتدخلوا فى اقامة شريعتهم ، فلايهدموا جامعاولا يمنعوا مصليا ، وان لا يحاكم المسلم إلا بشريعته ، ولا يقهر من اسلم على الرجوع إلى النصرانية ، و يسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى غير ان يحمل علامة كاليهود ، وان يحكم المسلمين جماعة منهم ، ولا يدفع المسلمون إلا جزية ، وان يطلق المسيحيون سراح اسرى المسلمين ، وان يكون للمسلمين الحق فى الخروج بأموالهم واولادهم إلى افريقية متى شاءوا

ووافق المسلمون على هذه الشروط إذ لم يكن فى مقدورهم غير ذلك الا فائدهم موسى فانه كان يفضل القتال الى اخر رجل من المسلمين ، ولم يثق بعهود المسيحيين وقد رأى كيف ينقضون المواثيق بعد ابرامها ، وكيف كانوا يحاكمون بقية مسلمى المدن الاخرى أمام محاكم التفتيش التى بدأت عملها فى أشبيلية عام ١٤٨٠ م ويصلبون ويحرقون من لم يقبل النصرانيــة منهم . ورأى موسى ان الرأى العام مجمع على التسليم ، فالقى بنفسه فى النهر ومات غرقا قبيل تسليم المدينة ، وهكذا غربت شمس الاسلام فى الأندلس وانطفأت شعلة العلم والفن والحضارة والرقى التى ظلت تنير اوربا الغارقة فى ظلمات العصور الوسطى من ٨٨ هـ — ٨٩٧ زهاء

تيف وثمانية قرون ، ولكل شيء غاية ، ولكل أمر نهاية ، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير

نهاية أبى عبد الله :

خرج الاسلام من أحد أبواب غرناطة ودخل الصليب من باب آخر ورددت احدى جوانب الفضاء الله أكبر وانبعثت من الجانب الآخر ترانيم القسوس ، وخرج أبو عبد الله إلى قرى صغيرة تركها له فرديناند وايزابلا ولكنها ما لبثا أن طرداه منها فخرج إلى أفريقية وأقام بفاس حتى توفى ٩٤٠هـ ١٥٣٨ م

غدر الأسبان :

لم يلبث الأسبان أن نقضوا العهد ونكثوا بالوعود فبدأوا باضطهاد اليهود ابتزاز لأموالهم ، وأحرقوهم بعد محاكمة هزلية أمام محكمة التفتيش ، ثم جاء دور المسلمين فاجبروهم على التنصر أيضا ، واظهروا من ضروب القسوة والوحشية ما تقشعر له الأبدان ، وامتنعت قرى واماكن عن التنصر فاستأصلها الأسبان قتلا وسبيا واحراقا وطردا ، وكثيرا ما قاتل المسلمون ذبا عن بيضة دينهم ، وانتصروا مرارا وشقوا لأنفسهم طريقا وسط ديار اعدائهم ، منه خرجوا إلى مراكش ومصر وتركيا

وكانت تركيا إذ ذاك فى أوج عزتها ومنعتها واستغاث مسلمو الأندلس بسلطانها فلم يغثهم . أما من بقى من المسلمين فاجبروا على اعتناق النصرانية ، اضطروا

إلى اظهار قبولها ، وكان هؤلاء مهرة الفلاحين وحذاق الصناع ، ومع ذلك ظلت الشكوك تحوم حولهم والجواسيس تحيط بهم ، وكانوا يساقون إلى محاكم التفتيش لأقل شك أو ريبة أو وشاية ، وكان جزاء من يحاكم منهم الحرق علنا فى شوارع غرناطة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، ومن لم يقبل من المسلمين اعتناق النصرانية اعتبر عبدا رقيقا . وفى عام ١٥٦٨م أمر ملك اسبانيا فيليب الثانى المسلمين أن يغيروا لغتهم وأزياءهم وأسماءهم فى يوم واحد ، إذ حدثت حوادث فى البحر الأبيض المتوسط أثارت الأسبان على المسلمين ، ذلك أن قرصان البحر من مسلمى البربر أقرباء مسلمى الأندلس أغاروا على ساحل اسبانيا . ولما ثار المسلمون أزاء ما يلقونه من ضروب الاضطهاد وقاتلوا فيالب زهاء ثلاث سنين أخضعهم أخوه دون جوان وذبحهم وحرق مساكنهم

وفى عام ١٦٠٩م طرد جميع المسلمين من اسبانيا ، وأحرقت كتبهم ومصاحفهم علنا فى شوارع غرناطة وقرطبة ، فخسر العلم وخسرت الانسانية من عمل الاسبان الجهلة ما لا يذكره التاريخ إلا بالحسرة والأسف والمقت لهذا التعصب الذميم .

خرج من الاندلس زهاء نصف مليون من المسلمين ، وسار إلى فرنسا مائتا ألف منهم ومنها تفرقوا إلى بقيه ديار المسلمين ، وهكذا خلت الاندلس من مصلحيها ، ومخرجيها من الظلمات إلى النور ، ومن بدلوا تأخرها حضارة ، وجهلها علما ، ومن قضوا على فوضى القوط واستبدلوا بها نظام الاسلام وعدالته ، وبدلوا فقرها غنى ، وخرابها عمرانا وجدبها خصبا ، ولا شك أن روح التعصب الذميم الذى حدا بالاسبان إلى مناوأة المسلمين واخراجهم من ديارهم قد عاد عليهم بالوبال والخسران ، إذ حرمهم ألوفا مؤلفة من نابغى المسلمين واليهود ، مما ترتب عليه تأخر الصناعة والزراعة والتجارة فى البلاد ، واضمحلالها الاقتصادى والعمرانى

الفصل الرابع

الحضارة الاسلامية بالاندلس فى أهم مناهجها

كان الخليفة أو الامير هو الرئيس الاعلى للدولة وصاحب السلطان ورئيس الحكومة فيها ، والمصرف لشئونها ، وكثيرا ما كان يعهد للوزير فى إدارة الشئون نيابة عنه ، وكان لكل مقاطعة وزيرها ومهمته إدارة الشئون المالية والخارجية والنظر فى المظالم وتنظيم الجيش وصرف أعطياته ، وكان هنالك وزراء مهمتهم حضور مجلس الخليفة للمشورة ، أما من كان له سلطة ايجابية فى الامر والنهى من الوزراء فكان يلقب بذى الوزارتين ورئيسهم يلقب بالحاجب ، وكان متصلا دائما بالخليفة أو الامير ، وكان يضم الجميع ديوان واحد ، وكانت مرتبة الحاجب أعلى من مرتبة بقية الوزراء

وكان لكل ديوان كاتب خاص يسمى كاتب الدولة . وأهم الكتاب كاتب الرسائل وكاتب الزمام واليهما كان يعهد بالنظر فى شئون غير المسلمين ، ورعاية مصالحهم ، أما حسابات الدولة فكان يشرف عليها صاحب الاشتغال ، وكان ديوانه شبيهاً بوزارة المالية فى عصرنا الحاضر ، وهو الذى كان يقبض الدخل ، ويفرض الضرائب ويضبط الخرج ، ويحاسب ؛ وكان يقوم بهذه المهمة فى عصر دولة بنى الأحمر موظف اسمه الوكيل ، أما صاحب الاشغال فكان يجمع الضرائب ليس غير

القضاء :

كان لكل مدينة قاض ، ومنصبه معدود من أسمى المناصب . أما رئيس القضاة فكان يسمى قاضى الجماعات وحكمه نافذ وأمره مطاع

الشرطة :

كانت مهمتهم حفظ الامن وردع الاشرار ، ورأسهم صاحب الشرطة ، وكان سلطانه عظيم مدة حكم خلفاء قرطبة . أما فى مختلف المدن فكان رئيس الشرطة يسمى صاحب الليل أو صاحب المدينة، وكان مرؤوسا للقاضى . ولمراقبة الاسواق ومنع الغش ومراعاة اعتدال أسعار السلع وضبط الموازين والمكاييل كان هناك شرطى خاص اسمه المحتسب ، وكان حراس الابواب يقومون بغلق المدن بعد صلاة العشاء ، وكانوا يسيرون دائما مدججين بالسلاح وفى صحبتهم كلاب تعاونهم فى مهمة الحراسة

الأسطول:

كان رئيسه يسمى أمير الماء أو قائد الاساطيل على عهد الناصر وخلفائه ، وكان الاسطول على درجة عالية من المقدرة والقوة أيام الامويين والموحدين، وكان يفوق أساطيل جميع الدول المسيحية مجتمعة ، ويقول ابن خلدون ان اضمحلال الاسطول وضعف القوى البحرية وكان من بين أسباب تدهور وانحطاط الدولة الاسلامية فى الاندلس

الزراعة :

لم تبلغ الزراعة فى بلد ما من الرقى ما بلغته فى اسبانيا الاسلامية ، إذ درس

العرب الزراعة دراسة علمية ، واستخدموا العلم والبراعة فى قلب الفيافى جنات وزروع ، وعرفوا ملاءمة كل نبات للتربة الخاصة به ، وانواع ومقدار الأسمدة اللازمة لكل نبات ، وادخلوا الى الاندلس زراعة الارز وقصب السكر والقطن والاسفيناخ والعصفر وانواع الفاكهة التى توطنت فى الأندلس ونمت فيها وانتشرت منها إلى بقاع اخرى فى اوربا ، وهم الذين ادخلوا شجر النخيل إلى مقاطعة غرناطه وزرعوا الزيتون والكروم وحفروا الترع ، وابتكروا المحصبات وعرفوا خواص التربة ولما دخل فرديناند الأول اقليم اشبيلية عام ١٢٥٥ م وجد به ملايين من شجر الزيتون ومايه الف معصره

الصناعة :

صنع العرب الآلات الحديدية والصلبية ، واشتهرت سيوف غرناطة فى كل انحاء شبه الجزيرة ، وادخلوا صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية إلى الأندلس وصنعوا الاقمشة الصوفية الدقيقة ، وهم أول من صبغ الملابس ونبغوا فى هذا الفن نبوغا عظيما ، وارتقت صناعة الخزف فى أيامهم رقيا عظيما تشهد بذلك أوعية الزهر ، وأنية قصر الحمراء ، وارتقت تجارتهم واشتهرت بضائعهم فى المشرق والمغرب وكانوا يصدرون النحاس والذهب والفضة والحرير والسكر والزئبق والحديد المصنوع منه والغفل والمنسوجات الصوفية ، والعنبر والمسك والزيتون والعقاقير والكبريت ، واستخرجوا المرجان من شواطىء الاندلس ، واللؤلؤ من مغاصات قطالونيه ، والياقوت من مناجم مالقه واشتهروا بدبغ الجلود وصبغها ، وماتت تلك الصناعة بخروج العرب من الأندلس حيث نقلوها معهم إلى مراكش ، واشتهر الجلد المدبوغ بطريقتهم باسم مراكش أو قرطبة ، وأدخل العرب إلى أسبانيا صناعة البارود والورق

الفنون الجميلة :

لم يهمل العرب الفنون الجميلة بل فاقوا جيرانهم المسيحيين . فى النحت والنقش والتصوير ، وامتلأت قصور الخلفاء فى قرطبة والزهراء بالزخارف والصور وتماثيل السباع ورسوم المواقع التاريخية ، وحفلات الصيد وموكب الخليفة ولا يزال باقيا بالحمراء من هذه كثير .

العلوم والجامعات :

ولم تخل مدينة من مدن الأندلس مهما صغرت من مدارس وكليات ، وكان بكل مدينة كبرى جامعات ومدارس عالية ، وأشهرها جامعة قرطبة وأشبيلية ومالقة وسرقسطه ولشبونة وجيان وسلمنقة ، وأشهر من نبغ فى التاريخ من بين طلبتها ابن حيان وله مولفان فى تاريخ الأندلس ، أولهما من عشرة مجلدات والثانى فى ستين جزءاً ، وابن الآبار المتوفى ١٩٠٦ م وأبو عبيد الله البكرى وأبو القاسم خلف المتوفى فى قرطبة ١١٨٣ وأبو الحسن على بن السعيد المتوفى بغرناطة ١٢٨٦ م ولسان الدين بن الخطيب وزير يوسف أبو حجاج المتوفى قتلا عام ١٣٧٤ م وكان لكل جامعة رئيس ، ولكل كلية عميد ، واشتهر فى رياسة جامعة غرناطة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى سراج الدين أبو جعفر عمر الحكمى ، ولم يكن هناك تمييز بين العلماء بسبب دينهم ، وكثيراً ماعين يهودى أومسيحى مديراً لجامعة قرطبة ، وكانت كل جامعة تعقد اجتماعات عامة يحضرها كل من شاء حيث يتلو الطلبه النابغون ثمار قرائحهم وابحاثهم ، وكان مكتوبا على كل كلية « قوام العالم أربع علم الحكماء ، وعدل العظماء ، وورع الاتقياء ، و بسالة البسلاء » ونافس أمراء غرناطة خلفاء قرطبة فى نصرة العلم والفن ، فنبغ فى غرناطة فحول العلماء وكبار الشعراء ونبغ من النساء والاديبات ترهون بنت أبى بكر الغسانى وكانت

ضليعه فى التاريخ والأدب، وزينب وحمده ابنتى زياد الكتبى الذى عاش بوادى الحامه وحفصة الركونية وحفصة بنت حمدون ، وصفية وعاشت فى أشبيلية وكانت خطيبة مقتدرة وشاعرة مجيدة ، واشتهرت بحسن خطها وكتابتها ، ومريم بنت أبى يعقوب الأنصارى ، وكانت تدرس النحو والأدب والشعر ، وممن نبغن فى شمال الأندلس حسانة التميمية بنت أبى الحسين الشاعر ، وأم العلا وعمة العزيز وزينب المربية وعاشت فى عصر المظفر بن المنصور بن أبى عامر وأسماء العامرية باشبيلية و بهجة وصديقتها ولادة بنت المستكفى بقرطبة واعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد وابنته بثينة ، وممن نبغ فى الطب والفلسفة وسجلوا اسماءهم فى صحيفة الخالدين أبو بكر محمد بن يحيى المعروف بابن الصائغ ، وكان وحيد عصره فى الطب والفلسفة والرياضة والفلك والموسيقى وأقام بسرقسطة ومات بفاس عام ١١٣٨م والعلامة ابن طفيل ،وعاش على عصر أبى يعقوب يوسف ثانى ملوك الموحدين ومات بمراكش عام ١١٨٥ م ، ويشتهر ابن طفيل بكتابة حى بن يقظان الذى ترجم فى العصور الوسطى إلى اللاتينية ، وابن زهر الاشبيلى وكان أحد أفراد أسرة أنجبت كثيرا من العلماء ونطس الأطباء وكبار الوزراء، وكابن زهر طبيب أبى يوسف المنصور ، وله مبتكرات جمة فى الجراحة والطب وتوفى عام ١١٩٩م وابن رشد، وكان أبوه وجده قضاة لقرطبة وكان هو قاضيا لأشبيلية ثم لقرطبة ، وكان ابن رشد صديقا حميما لابن زهر ، وابن طفيل وتوفى عام ١١٩٨ م وكابى القاسم خلف المعدود فى طليعة جراحى القرن الحادى عشر الميلادى وله طرق فى العمليات الجراحية تطابق الطرق الحديثة ، وابن البيطار صاحب اليد الطولى فى علم النبات ومؤلف كتاب مفردات ابن البيطار الذى لم يقتصر بحثه فيه على ما وصل اليه علم الاغريق بالنبات ، بل ساح من أجله فى جميع أنحاء المشرق للوقوف على خواص

الأعشاب والعقاقير الطبية وفوائدها .

أثر الحضارة الأندلسية فى النهضة الأوربيه

كانت الأندلس حاملة مشعل الحضارة وقبس العلم وسط ظلام العصور الوسطى فكانت مقر الفنون والصناعات الراقية ، وبها من المدارس الجامعة ودور الكتب العظيمة مالا يدخل تحت عصر ، فلا عجب أن كانت كعبة القصاد ومهبط طلاب العلم من جميع أنحاء أوربا المسيحية وممن وفدوا على الاندلس راهب تغلب على التعصب الدينى وجاور فى أشبيلية ثلاث سنين ، ثم درج فى وظائف الكنيسة الكاثوليكية حتى رقى كرسى البابوية وهو البابا سلفستر الثانى، ونحا نحوه الكثير من الطلبة فكثر ارتحالهم الى مدارس الأندلس ، حيث تخرجوا فى جامعاتها ثم عادوا إلى أوطانهم يلقون دروس العلم فى ساحات المدن الكبيرة ، وقرب الملوك والأمراء المسيحيين علماء المسلمين اعترافا بفضلهم ، فكان الشريف الادريسى الجغرافى الشهير مقربا عند روجار الثانى ملك صقلية، وكان أحفاد ابن رشد مقربين كذلك عند خلفاء روجار ، وفى القرن الثالث عشر للميلاد لما أراد الفرنسيون فتح مدرسة للطب فى مونبيليه بجنوب فرنسا استقدموا للتدريس بها أساتذة من عرب الاندلس ، وعنهم نقلوا علوم العرب وآدابهم

ولم يكن تأثير حضارة الاندلس العربية فى الشعر والموسيقى باوربا بأقل من تأثيرها فى العلوم والفلسفة ، فقد كان لرقى الشعر وكثرة تداوله بين جميع الطبقات فى الاندلس من الأمير إلى الفلاح أكبر أثر فى تحبيبه إلى الطلاب الاوربيين الذين وفدوا على تلك البلاد فى طلب العلم ، ونشر أولئك الطلاب فى أقوامهم تلك النزعة الشعرية التى أثرت فى أناشيدهم وأغانيهم القومية . وقد نقل الاوروبيون

كثيرا من كتب العرب فى الفلسفة والطب . نخص بالذكر منها ثلاث كتب من مؤلفات ابن رشد وهى الكليات فى الطب ، وفلسفة أرسطو ، وكتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، وكذا كتاب حى بن يقظان لابن طفيل

تلك كانت شعلة وهاجة قبس منها من كانوا إذ ذاك فى جهالة يعمهون . وشاءت المقادير أن يضىء قبسهم وأن تنطفىء الشعله الأصلية ويخرج الأسبانيون أهلها من ديارهم بسبب انقسامهم على أنفسهم ، والكيد لبعضهم والالتجاء إلى العدو الذى كان يتربص بهم الدوائر ، وماقامت بينهم من حروب ذهبت بريحهم وعجلت فى القضاء عليهم ، هذا إلى انحلال أخلاقهم وضياع وحدتهم وتماسكهم وانغماسهم فى الترف ، وانصرافهم عن المعيشة الحربية وخشونه الجندية إلى طراوة النعيم ، تلك هى بعينها الأسباب التى أسقطت دولا من قبلهم ومن بعدهم ، تلك أمم قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تظلمون فتيلا

الفصل الخامس

أسباب سقوط الدولة الاسلامية فى الاندلس

ليس فى حوادث التاريخ ما هو أغرب من أخبار الدولة الاسلامية فى الأندلس ولا ما هو أوعظ من سقوطها من علياء مجدها ، بعد أن بلغت من العز والمنعة والحضارة والسطوة ما لم يرله العالم القديم مثيلا ، ففى أقل من عشر سنين بعد غزو العرب أسبانيا عام ٧١١ م تمكنوا من اتمام فتحها فيما خلا بعض أصقاع جبلية فى الشمال الغربى منها ، ولم يقتصر العرب على فتح أسبانيا بل عبروا جبال البرانس وفتحوا جنوب فرنسا وتوغلوا فى أصقاعها حتى صدمهم شارل مارتل فى موقعة بواتيه التى يسميها العرب بلاط الشهداء ٧٣٢ م فاضطروا إلى التراجع بعد قتل قائدهم عبد الرحمن الغافقى . ولو أن تم النصر للعرب لوقعت أوربا فى يدهم ولانتشر الاسلام فى ربوعها ، وتعد موقعة تعد من المواقع الحاسمة فى التاريخ . ولم يحاول العرب الاستيلاء على بلاد الفرنجة بعد هذه الموقعة ، وبدأوا يتراجعون تدريجا إلى الأندلس ولم يبق لهم فيما وراء البرانس إلا مقاطعة سبتمانيا ولم تعد حروبهم فى جنوب فرنسا إلا غارات لا أهمية لها

وحكم الأندلس بعد موسى بن نصير ولاه عدة من ٩٦ — ١٣٨ هـ ، شغل معظمهم عن الفتح بقمع الفتن الداخلية الناجمة عن ظهور العصبيات واحياء الاحن والحزازات التى نشأت بين الآباء والأجداد فى مجاهل بادية العرب ، وأخذ الأبناء والاحفاد يصفون حسابها ويجعلون منها شغلهم الشاغل فى أزهر بقاع أوربا حضارة ،

فكانت بلاد الأندلس مسرحا للحروب بين العرب والبربر ، ثم بين العرب المضريين واليمانيين ، وظهر من هذا المسلك المعوج سوء سياسة العرب ، وعجزهم عن إقامة ملك وطيد ، لأنهم جلبوا على أنفسهم عداوة حلفائهم البربر لما نالهم من حيف وسوء معاملة ، ولم يحافظوا على وحدتهم مع ذلك وسط شعب أجنبى عنهم اشتهر بكبريائه واعتداده بنفسه ، ولا حسبوا حسابا لنهضته من كبوته بعد إذ غلب على أمره . وساعد على زيادة الخلل والاضطراب بعد الأندلس عن مقر الخلافة الاسلامية بدمشق مما جعل سلطة الخلفاء الامويين ضعيفة فيها ، وتركها فريسة للتطاحن الحزبى ، فأصبحت الأحزاب تقيم الأمراء وتعزلهم بلا اكتراث بالخليفة أو عماله فى أفريقية . وتضاءلت سلطة الخليفة على أقصى ممتلكاته فى غرب أوربا حتى أصبحت شبحاً وزوالا أثناء ما انتاب الأمويين فى أواخر ستى دولتهم بالمشرق من احداث جسام . وأخيراً سقطت الدولة الأموية وقامت على انقاضها الدولة العباسية . و بالغ خلفاؤها فى اضطهاد بنى أمية ودبروا المذابح المتعددة لاستئصال شأنه البيت الأموى

وكانت الاندلس تتخبط فى فتن مدلهمة خبط العشواء . وأميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى عاجزاً عن القضاء على الخلافات التى نشأت بين القبائل . فرأى موالى بنى أمية فيها نقل الامارة الى أحد الامراء الامويين الفارين من مذابح العباسيين . واستعانوا بجند اليمن و بعض البربر على تنصيب عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام . وكان من أثر الجهود التى بذلها بدران رحبت القبائل السورية واليمنة بعبد الرحمن لما دخل الاندلس ، وانتصر على يوسف وأصبح أميرا على الاندلس ومؤسسا لدولة أموية دامت قرابة ثلاثمائة عام ، واجتازت أدوار ثلاثة:

ففى دورها الاول وطد الامراء ملكهم وأصطدموا بعناصر الانحلال والفوضى فصارعوها وكافحوها ، فترى الداخل وابنه هشاما والحكم بن هشام يظهرون الحزم والعزم والبطش والقوة ، يخضعون الثورات و يغزون الشمال ، و يقلمون أظفار الامراء المسيحيين، و يقيمون الحكم المطلق ، و يشيدون صروح الدولة الاستبدادية ويقمعون الفتن بحد السيف مما لم يستسغه العرب الذين ألقوا الحرية والف ذووا الحسب من بينهم التسامى الى منافسة الحاكم وغل يديه واضعاف شوكته وسلطانه ، وأعيت شكيمتهم وعنادهم حكمة السواس ودهاء الامراء فلم يكن خضوعهم الا خضوعا وقتيا كلما غلبوا على أمرهم ، ولا يستمر الا ريثما يلمون شعثهم ، و يجمعون شتاتهم و يعدون العدة لثورة أخرى ، ومن عناصر الشغب التى جابهت الحكم بن هشام تطلع الفقهاء والذين درسوا مذهب مالك على ذلك الامام الاعظم بالمدنية الى نوال سلطان سياسى فى الاندلس ، وأطمعهم حلم هشام والد الحكم وسماحة خلقه ولين جانبه فى زيادة الطموح ، ولما لم يمكنهم الحكم بن هشام من بغيتهم ألبوا عليه الرعاع ، وقاد ثورتهم يحيى بن يحيى وعيسى ابن دينار، وشبت نيران فتنة دينية كادت تقضى على ملك بن أمية لولا رباطة جأش الحكم وتمكنه من اخماد الثورة والبطش بالثائرين

وفى دورها الاوسط بدت طلائع أفول نجم الدولة الأموية بالأندلس ، بعد موت الحكم لانشغال ابنه عبد الرحمن الثانى بتجميل قرطبة، وتركه شؤون الدولة فى أيدى يحيى بن يحيى، والسلطانة طروب ونصر الخصى، ولكنه لم يلبث أن ادرك خطأه فاقصى تلك الايدى العابثة ، واسترد للملك هيبته وسلطانه. ورفع الخصيان محمد بن عبد الرحمن الى العرش، فساءت سيرته سوء اجلب على الدولة شرا مستطيرا وتألبت الولايات متحفزة للخروج عن طاعته ، فاستقلت طليطلة وتشجع موسى

الثـانى اميرا رجونه ، فبسط نفوذه على الولايات الشمالية وحالف الفونس الثالث وتلك كانت خطوة مشؤومة، ان دلت فانما تدل على انعدام الأخاء الدينى بين كبراء الدولة وساداتها ، وتغليبهم الشهوات والمنافع والاغراض الذاتية على نصرة دين الله واعلاء كلمته . وتجرأت تلك الرذيلة على توطيد قدميها فظهر ابن حفصون مسلما يريد استقلال اقليم من وطنه أول الامر ، ثم كشف عن خبيئة نفسه فارتد عن الاسلام ودعا رعاياه الى أن يفعلوا فعلته ، واستقلت ماردة وسقطت هيبة الامارة ، ولم يطل العهد بالمنذر بن محمد الذى اغتاله أخوه عبد الله بن محمد . وفى عهده استفحل الشر وتوطد ملك ابن حفصون ، وتحركت الاسر العربية والبربرية كل يعمل فى امارته على الانفصال عن قرطبة . ولكن موت عبد الله وتوليته الناصر أعاد الى الدولة الأموية شبابها ومكنها من استرداد قواها ، فكانت خاتمة الدور الاوسط عصر الاندلس الذهبى الذى استمر مدة حكم الناصر ، والحكم الثانى والمنصور بن أبى عامر حاجب هشام الثانى ، وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون الذين خلقوا الدولة خلقا جديدا ، و بدلوها من ضعفها قوه ، ومن الفتن هدوءا ، ومن الفوضى نظاما ، فقضوا على جميع الثائرين وأعادوا الى البلاد كيانها الذاتى ووحدتها السياسية ،وضموا اليها كل المقاطعات التى كانت قد استقلت عنها ، وحموا الاسلام وردوا عنه عداته ، وزحفت جيوشهم متوغلة فى ديار المسيحيين من أهل الشمال يدكون حصونهم و يذلون كبرياءهم . ويخضدون شوكتهم ، و ردوا الفاطميين على أعقابهم ، وازدادت البـلاد رخاء وثروة ونظاما وعدلا فازدهرت وخطت خطوات فسيحة فى الحضارة والرقى . ولكن المنصور بن أبى عامر احنق الشعب بتهجمه على العرش واغتصابه كل حقوق الخليفة وسلطانه وألقابه ، فكان بعمله هذا أول ممهد للقضاء على الدولة الاموية

فى الاندلس ، ومع ذلك فقد تسامح الشعب واحتمل منه استطالته على الخلافة الأموية لكفايته وبطولته النادرة ، أما ولداه فلم يبلغا مبلغه ولم يدركا شأوه ، وتبـدى للشعب عجز ثانيهما عبد الرحمن المأمون عن ضبط أموره وأنه مع عجزه هذا فاق الـكل فى طغيانه واستهتاره ، و بلغ به الامر أن تجرأ على جعل نفسه ولى عهد للخليفة المستضعف هشام الثانى ، مما أثار عليه ثائرة الشعب فى قرطبة فثار عليه وقتله ، و بقتله انتقلت الدولة الاموية إلى دورها الثالث وهو عصر الفتن والشغب والفوضى ، وفيه تنافس الامراء من أحفاد الناصر فى الاستحواز على الخلافة وتنازعوا على العرش ، واستعانوا بالمسيحيين على بعضهم البعض حتى أن جنود المستعين لما أرسلوا إلى سانكوا أمير قشتالة يعرضون عليه التحالف و يطلبون منه المعونة وجد رسولهم عنده رسلا من قبل المهدى ، يعرضون عليه التحالف ، و يعدونه بتسليم مدن وحصون اليه ، إذا انضم إلى المهدى و كان الموقف على عكس ذلك تماما منذ خمسة أشهر ، وكان هذا بدء الانقلاب فى تاريخ الاسلام بالاندلس ، ومستهل المآسى المفجعة ، إذ أصبح مصيرها بيد الامراء المسيحيين ، وأصبح المسلمون يستعدونهم على اخوانهم و بنى جلدتهم ، و بعد أن كان المسلمون هم الآمرون الناهون يملون إرادتهم على جميع الامراء المسيحيين إذا بأمير مسيحى واحد هو أمير قشتالة يصبح معقد الرجاء ومناط الآمال والمقرر لمصير الدولة الاموية بالاندلس

ومن مظاهر عصر الفوضى :

(١) أن التنازع على الخلافة لم يكن سوى نتيجة مطامع الوزراء والحساب والقواد ، كل يدفع مرشحا من أمراء بنى أمية إلى الثورة، والوثوب على الخليفة ليصبح هو المدبر للامر باسمه

(٢) استقلال الأمراء والحكام كل فى مقاطعته ، وقيام ملوك الطوائف منفصلين عن قرطبة ، فقام ابن عباد فى أشبيلية وابن ذى النون فى طليطلة ، وابن أبى عامر فى بلنسيه ، وابن الأفطس فى بطليوس ، وابن هود بسرقسطه ، ومجاهد العامرى بجزر البليار ، والبرزالى فى قرمونه ، وباديس فى غرناطه ، واقتصرت سلطة المستمعين على قرطبة وثلاثة مدن حولها

(٣) استفحال الفوضى وتفكك وحدة الدولة الأندلسية ، فاصبح كل امير من أمراء الدويلات الصغيرة ، يصور له الغرور أن ملك كبير يصح أن يكون للمؤمنين أميراً ويحسده أمراء دويلته فيتواثبون على عرشه ، فاذا استتب الأمر لأحدهم طمع فى ملك جيرانه ، وكل يتزلف للامراء المسيحيين يستنصرهم ويستعديهم على بنى ملته ، ولا يجد غضاضة فى الدخول فى ذمارهم وحمايتهم ليشد بهم أزره فى الكيد لجيرانه

(٤) ظهور خلافة بنى حمود فى مالقه حيث تولاها على بن حمود ثم أخوه القاسم بن حمود ثم يحيى بن على بن حمود ثم عادت للقاسم ثم ليحيى مرة أخرى واستمرار الفتن فى قرطبه من عام ١٠٠٩ — ١٠٣٦م مما أدى إلى الغاء الخلافة فيها واعلان الجمهورية برياسة ابن جهور

(٥) تولد الأمل فى صدور المسيحيين بحلول ساعة خلاص بلادهم من أيدي الغزاة الفاتحين من العرب والبربر ، فعمل الفونس السادس على ضم الأقطار المسيحية تحت حكمه حتى أصبح أمبراطورا على ليون وقشتالة وجاليفة ونفارا ، على أنه لم يتعجل الحوادث بل أخذ يعتصر أموال المسلمين ، ويستنزف ثروتهم على مهل بما فرض من جزية عليهم ، وأخيرا تبدى له أنه أتم عدته فشرع فى فتوحاته وأعلن على المسلمين حربا صليبية لا تعرف صلحا ولا هوادة ، ويرجع

أصل الشر إلى تلك الشراذم من القوط التى سمح لها العرب عند فتح الأندلس بالانسحاب إلى الشمال ، وتركوها تعتصم فى جباله الوعرة . وهذا الخطأ الذى لا يغتفر هو سبب البلاء ومصدر الكوارث والمحن التى عاناها مسلموا الأندلس بعد ذلك

(٦) تحلل أخلاق العرب والبربر وتبدل طباعهم نتيجة الترف والنعيم الذى انغمسوا فيه ففقدوا خشونة الجندية ، وفشا فيهم داء العصيان العضال ، وقعدوا عن مجالدة العدو الذى اشتغلوا عنه بأنفسهم يكيدون لبعضهم البعض ، و يحالفون الأعداء ، ويكشفون لهم مواطن الضعف فيهم ، مما أطمع المسيحيين فيهم ، وشجعهم على زحزحتهم عن ديارهم ، فكان حكم ملوك الطوائف شر ما أضر بالمسلمين ، إذ أن انقسامهم على أنفسهم جر الخراب عليهم ، فاكتسح الفونس السادس ديارهم حتى جبل طارق عام ١٠٨١م وحاصر أشبيلية ودمر شيدونة ، وخرب طليطلة ثم استولى عليها ١٠٨٥م وبلغت المذلة بامراء المسلمين من ملوك الطوائف أن أسرعوا جميعا لتهنئته بدخول أمنع مدنهم ، فاصبح يلقب نفسه بملك المسيحيين والمسلمين ، واستفحل أمره فاستولى على بلنسيه وحاصر سرقسطة وغزا المريه فعم اليأس ديار المسلمين مما اضطرهم إلى الاستغاثة بالمرابطين

(٧) وأنجد المرابطون مسلمى الأندلس ولكنهم اضطروا إلى ثل عروش ملوك الطوائف ، على أن دولتهم لم تعمر طويلا إذ سرعان ما دبت فيها عوامل الضعف ، وأعاد التاريخ نفسه فبسم الحظ لملوك الشمال المسيحيين الذين عادوا يزحفون جنوبا ، وهددوا قرطبة ، فاستغاث عرب الأندلس بالموحدين ، وهذه الدولة أيضا أصابها ما أصاب سابقتها من العجز والضعف والفناء ، وعاد الداء العضال يدب دبيبه ، فى ذلك الجسم المريض فتجزأت دولة الموحدين بين أمراء

متحاسدين متباغضين يكيد بعضهم لبعض، ويستنصر الكل بالمسيحيين ولم يكن هؤلاء بغافلين عن حقيقة حال جيرانهم ، ولا كانوا بحاجة إلى من يحثهم على القضاء عليهم فأخذوا يهاجمون قرطبة عاصمة المسلمين ، حتى سقطت فى أيديهم عام ٦٣٤ هـ ١٢٣٦ م ، ولم يقف فى وجه المسيحيين سوى بنو نصر أو بنو الأحمر الذين استقلوا بغرناطة عام ٦٣٠هـ ١٢٣٢م

(٨) انكمش ملك الاسلام فى تلك الامارة التى بدأت قوية واستطاعت أن تصمد للعدو وترد غاراته زهاء قرنين ونصف قرن من الزمان لمناعة موقعها، وعدم اتحاد الأمراء المسيحيين ضدها . ولقد شيدت تلك الامارة للاسلام مجدا خالدا فى ديار الأندلس ، ورفعت منارة ، وحمت ذماره ، ورقت الصناعة والزراعة وحمت العلوم والفنون ، ولكن داء الفتن والخصام وهو بليه البلايا فى تاريخ الدولة الاسلامية بالأندلس، عاد فقضى عليها. فبينما كان زواج منحوس يهدد البقية الباقية من ملك الاسلام بالزوال والضياع كان هناك زواج سعيد يعقد فى الدولة الأسبانية المسحية يبشر المسحيين بسعد طالعهم وقرب ظفرهم ، وهو زواج فرديناند أمير قشتالة من ايزابل ملكة أرغونة عام ١٤٦٩م مما ترتب عليها انضمام ملكيهما وانضمت اليهما ليون بعد ذلك ، فلم يلبث الزوجان المتعصبان أن أسقطا آخر معاقل الاسلام فى ديار الأندلس واستوليا على غرناطه ١٤٩٢ ١٩٤٢ م ، و بذلك انتهى حكم المسلمين وذهبت ريحهم وغربت شمسهم . أن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فاعتبروا يا أولى الأبصار